خطبة صلاة الجمعة 12/12/2014 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(رحمَ اللهُ والداً أعانَ ولدَه على بره)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيما . وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾ [الإسراء: 23- 24]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلى رسولِ اللَّهِ صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم فقال: يا رسول اللَّه مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بحُسنِ صَحَابَتِي؟ قَالَ: «أُمُّك» قَالَ: ثُمَّ منْ؟ قَالَ: «أُمُّكَ» قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «أُمُّكَ» قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «أَبُوكَ». [متفقٌ عَلَيهِ]

أيها الإخوة:

سبق في الأسبوع الماضي حديثٌ عن بر الوالدين، وختمت الخطبة بالقول:

أيها الأبناء: من المستحيلات أن يُنسَى برُّكم أمّهاتِكم، وأن يُنسى برُّكم آباءَكم، فالبرُّ لا يُنسى، والديان لا يموت.

أيها الأبناء: إذا أردتم التوفيقَ في الدنيا والسعادةَ في الأخرة فعليكم ببر الوالدين.

أيها الأبناء: إنكم لن تجدوا بارّاً إلا والتوفيق حليفه، ولن تجدوا عاقاً إلا والخذلان رفيقه.

ولأنَّ أمرَ بر الوالدين على هذه الأهمية، أعتقد أن أبناءنا بحاجةٍ إلى مَن يعينهم على البر، ولذلك سأجعل عنوان خطبة اليوم:

(رحم الله والداً أعانَ ولده على بره)

أيها الإخوة:

عندما يتحدث القرآنُ الكريم عن حقوق الزوج على زوجته، فإنه يتحدث عن واجبات الزوج نحو زوجته، حتى تكتمل الصورة من كلّ جوانبها..

وعندما يتناول حديثُ سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم حقوقَ العُمَّال على مدرائِهم فإنه يتكلم عن واجبات العمال نحو أعمالهم؛ حتى تكتمل الصورة من كل جوانبها..

وهكذا في حقوق المعلّم والجار والرحم وغيرها..

وإنَّ مما يُعاب على بعض الاتفاقيات الدولية اليوم أنها تتكلم على حقوق شخصٍ وتشيح الطرف عن واجباته، خذوا مثلاً اتفاقيةً صُنِعتْ لحقوق المرأة اسمها (إلغاء كافة أشكال التمييز ضد المرأة –سيداو–) تتألفُ الاتفاقية من ثلاثين مادة، وردت فيها كلمة حق أو حقوق ستاً وخمسين مرة، بينما وردت كلمة واجب مرة واحدة! فلذا بدَتِ الاتفاقيةُ عرجاء أو عوراء.

إنه من النقص أن نتكلم عن الحقوق ولا نتكلم عن الواجبات.

إنه من النقص أن نتكلم عن بر الوالدين من دون الكلام عن معونة الوالدَين الولدَ على البر.

خمسة أمور بها تُعين ولدك على برك:

أولاً– اختيار زوجك:

والزوج كلمة تطلق في اللغة على الرجل والمرأة، فعندما يختار الشاب زوجته فهو يختار أولاده، وعندما تختار الفتاة وأهلها زوجا لابنتهم فهم يختارون أولادها؛ لأن النساء يلدنَ أشباهَهنَّ، وأشباه إخوانهن وأخواتهن، ولأنَّ الرجل يلدُ مثيله، فالمرأة البارّة تلدُ البارين, والرجلُ البارُّ يربي البررة، والمرأةُ الصالحةُ تنجب الصلحاء والرجل التقي يربي الأتقياء.

وليس النّبتُ ينبتُ في جنـــــــانٍ كمثـــــل النّبت ينبـــــت في الفلاة
وهـــــل يُرّجَى لأطفـــالٍ كمـــالٌ إذا ارتضـــعوا ثُـــدِيَّ الناقصـــاتِ

جاء رجلٌ إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه يشكو عقوق ولده, فأمره بإحضاره, فسأله، فقال: يا أمير المؤمنين ما حقي على والدي؟ قال: أن يحسن اختيار أمِّك، ويحسنَ اختيار اسمك، ويعلمك القرآن، قال: ما فعل شيئاً من ذلك. فقال عمر للأب: انطلق فقد عققْتَ ابنَك قبل أن يعقَّك.

أوَّل ما تُعين به ولدَك على برِّك: اختيار زوجك.

ثانياً– العدل بين الأبناء:

فالعدل بين الأبناء يستخرجُ برَّهم، وتفضيل واحدٍ على الآخر يجلب عقوقهم، ويزرع بذور الشقاق بينهم.

قال صلى الله عليه وسلم: «**اعدلوا بين أولادكم**» [النسائي]

وفي لفظ: «**اعدلوا بين أولادكم في النِّحَل كما تحبون أن يعدلوا بينكم في البرِّ واللطف**» [ابن حبان].

يقول أحدُ موجهي وزارة التعليم: رحم اللهُ أبي, كان يفضِّل أخي الأكبر علينا ويخصُّه بأدق أسرار عمله, ويقول: إنه يَشقى في تحمُّل المسؤولية معه، وكان يتّخذه صديقاً له، أما نحن الصغار فلم يكن يُقرّبنا منه, وبعد وفاة أبي استولى أخي على كلِّ شيءٍ ولم نأخذ من إرث أبي إلا القليل القليل، وكان هذا مصدرَ ألمٍ متجددٍ لنا جميعاً، خصوصاً وأنَّ فينا مَن لم يُوسَّع عليه في الرزق، بينما أخي الأكبر يتمتع بكل الثروة هو وأولاده، ومنا من لا يترحم على أبينا, ومن أبنائنا من لا يذكر جدَّه بخير.

وعن الحسن رضي الله عنه قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدِّث أصحابه إذ جاء صبي حتى انتهى إلى أبيه في ناحية القوم, فمسح رأسه وأقعَدَه على فخذه اليمنى, قال: فلبث قليلاً, فجاءت ابنة له حتى انتهت إليه, فمسح رأسها وأقعدها على الأرض, فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**فهلَّا على فخذك الأخرى**» فحملها على فخذه الأخرى، فقال: «**الآن عدلت**».

عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ، قَالَ: حَمَلَنِي أَبِي بَشِيرُ بْنُ سَعْدٍ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، اشْهَدْ أَنِّي قَدْ نَحَلْتُ النُّعْمَانَ كَذَا وَكَذَا، شَيْئًا سَمَّاهُ، قَالَ: فَقَالَ: «**أَكُلَّ وَلَدِكَ نَحَلْتَ مِثْلَ الَّذِي نَحَلْتَ النُّعْمَانَ؟**» قَالَ: لَا، قَالَ: «**فَأَشْهِدْ غَيْرِي**» قَالَ: ثُمَّ قَالَ: «**أَلَيْسَ يَسُرُّكَ أَنْ يَكُونُوا إِلَيْكَ فِي الْبِرِّ سَوَاءً؟**»، قَالَ: بَلَى، قَالَ: «**فَلَا إِذًا**». [البخاري ومسلم وأحمد].

فبالعدل بين أولادك، وبحسن اختيار الزوج تُعينهم على برِّك.

ثالثاً– الدعاء للأبناء:

فهذا سيدنا إبراهيم عليه السلام يدعو: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: 100]. ويدعو: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: 35].

وسيدنا زكريا يقول: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [آل عمران: 38]

والمؤمنون يقولون: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: 74].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«ثلاثُ دعوات مستجابات لا شك فيهن: دعوةُ المظلوم، ودعوة المسافر، ودعوة الوالد على ولده»** [الترمذي] يعني: عليه أو له.

ولئن كان الدعاءُ للأولاد يكسبك بِرَّهم, فإن دعاءك عليهم يورثك العقوق، وقد شكا رجلٌ إلى أحد العلماء عقوقَ ولده فقال له: أكنتَ تدعو عليه بشيء؟ قال: الأب: نعم, أن لا يوفقه الله, فقال العالم: لقد فعل الله, أنت أفسدتَه!.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«لا تدعوا على أنفسكم, ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعوا على خدمكم، ولا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة فينزل فيها إعطاء فيستجابَ لكم»** [أبو داود].

رابعاً– تربيتهم تربية إسلامية صحيحة:

إنَّ التربيةَ الإسلامية تقوم على بر الوالدين, وإنك عندما تأخذ أولادك نحو بيوت الله، نحو أهل القرآن، نحو أصحاب الخير، فأنت تأخذ بيدهم نحو البر.

وإنك عندما تدفع أولادك إلى المدارسِ ذاتِ المناهج الغربية، أو إلى أصحاب المقاهي والملاهي، فأنت تنزع منهم البر, أو على أقل تقدير أنت لا تعيرُ البرَّ عندهم اهتماماً.

لأن البر تربية، والعقوق تربية... وبالتربية الإسلامية الصحيحة تعين ولدك على برك.

خامساً– لا تكلفْهم ما لا يطيقون:

إذا أردتَ برَّ أولادك بك فلا تكلِّفهم ما لا يطيقون..

فالأم التي تطلب من ابنها أن يطلق زوجته تكلفهُ ما لا يطيق, وهي تدفعه إلى العقوق.

والأب الذي يُثقِل كاهل أبنائه بطلباته المادية بغير ضرورة يكلفهم ما لا يطيقون, ويدفعهم إلى العقوق.

والأم التي تدعو ابنتها إلى هجر زوجها تكلّفُها ما لا تطيق, وتدعوها إلى العقوق.

والأب الذي يصبُّ على أولاده الشتائم, أو يوبخهم أمام أصدقائهم, يكلفُهم ما لا يطيقون, ويدفعهم نحو العقوق.

وربنا جل جلاله مع عظيم حقه على عباده قال: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: 286], ودعا المؤمنون ربهم فقالوا: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة: 286].

فلا تثقل كاهل الأولاد بتكليفهم ما لا يطيقون تستجر بذلك برهم.

هذه خمسةُ أمورٍ تعين بها أولادك على برك:

1- باختيار الزوج.

2- بالعدل بينهم.

3- وبالدعاء لهم.

4- وبتربيتهم تربية إسلامية صحيحة.

5- وألا تكلفهم ما لا يطيقون.

﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: 74]

والحمد لله رب العالمين